



فاروق يونس*: قراءة في كتاب الاقتصاد السياسي للاتصال

بدأ الاقتصاد السياسي للاتصال في التطور في الستينيات من القرن الماضي، وقد اتخذ في البداية شكل التساؤل عن الخلل في تدفق الاعلام والإنتاج الثقافي بين الدول الواقعة على جهتي الخط الفاصل (للتنمية).

شقت دراسات الاقتصاد السياسي للاتصال طريقها في سنة ١٩٧٥ من خلال دراسة حول (الصناعات الثقافية) ولا (الصناعة الثقافية)، ويكشف هذا الانتقال من المفرد الى الجمع (بمعنى الصناعات) بدل (صناعة) عن التخلي عن الرؤية مفتتنة بأنظمة الاتصال في الوقت الذي اصطدمت فيه السياسات الحكومية الرامية لإحداث ديمقراطية الثقافة بالمنطق التجاري في سوق تسير نحو التدويل. إن الأمر يدل على اننا نواجه تعقد الصناعات المتنوعة في محاولة لفهم السيرورة التصاعدية (لاصلاح) النشاطات الثقافية بواسطة رأس المال.

التبعية الثقافية

الاندماج العالمي والتبادل غير المتكافئ

تحدث ماركس Marx واتباعه عن الطابع (الثوري) للرأسمالية التي يكمن قانون بقاؤها في الانقلاب المستمر لقوى الانتاج بفضل توسعه. وبفضل تطوره الدائم أنشئ النظام الرأسمالي بدون أن يدري شروط فناءه من خلال تطور القوى الاجتماعية واحتدام تناقضاته. إن تطور كل مجتمع خاص يتوقف أولاً على تطور بنياته الداخلية، ويمر كل مجتمع بالضرورة بعدة مراحل ويلي تاريخ كل مرحلة نموذجاً من نماذج التطور المتتالية.



شبكة الاقتصاديين العراقيين

IRAQI ECONOMISTS NETWORK
www.iraqieconomists.net

أوراق في المعرفة الاقتصادية

في الاتجاه المعارض لهذه الرؤية - ان تاريخ الرأسمالية في العديد من الدول لا يتطابق مع هذا المخطط وان (التطور) ليس مؤكدا بل نحن على العكس نشاهد (تطور التخلف) في العديد من مناطق العالم. إن وحدة تحليل الرأسمالية المعاصرة ليست الشركة الوطنية بل (النظام-العالم) الذي تكون فيه الأمم مجرد عناصر هذه الفرضية في الاندماج العالمي التي صاغها الاقتصادي بول باران Paul Baran سنة ١٩٥٧ في كتابه **الاقتصاد السياسي للنمو** التي تلتقي مع تلك التي صاغها المؤرخ ايمانويل فالرشتاين Immanuel Wallerstein في حوار حول مفهوم (اقتصاد-العالم) الذي وضعه الباحث فيرناند بروديل Fernand Braudel

يتحدد مفهوم (اقتصاد-عالم) في الواقع على مستويات ثلاثة: فضاء جغرافي معين، ووجود قطب (مركز العالم)، والمناطق التي تتوسط هذا المحور المركزي من خلال تقسيم العمل. ويسمى هذا المخطط من العلاقات: التبادل غير المتكافئ. إن الرأسمالية هي (خلق عدم تكافؤ العالم) ولا يمكن تصور عدم التكافؤ هذا إلا في فضاء واسع جدا (كوني). إن خريطة الشبكات التجارية بما فيها شبكات الاتصال تشكل جزءا أساسيا وبارزا في صياغة مركزية العالم بتراتبية وأنماط انتاجه المختلفة.

الامبريالية الثقافية

قادت الرؤية الجديدة للفضاء العالمي إلى تجديد الدراسة حول العلاقات الدولية في مجال الثقافة والاتصال وأثارت العديد من البحوث التي توضح التبادل غير المتكافئ لمختلف المنتجات الثقافية.

اليونسكو والنظام العالمي الجديد للاتصال



شبكة الاقتصاديين العراقيين

IRAQI ECONOMISTS NETWORK
www.iraqieconomists.net

أوراق في المعرفة الاقتصادية

بدعم من حركة عدم الانحياز طغى النقاش حول التدفق غير المتكافئ للمواد الثقافية والاعلامية على المجتمع الدولي في السبعينيات من القرن الماضي وهو (عقد النظام العالمي الجديد للاتصال والاعلام). مثلت اليونسكو المنبر الأساسي للتعبير عن هذا الموضوع، وتم إنشاء لجنة دولية لدراسة مشاكل الاتصال عام ١٩٧٧ وبعد ثلاث سنوات نشرت الصيغة النهائية لتقرير اللجنة، وهو أول وثيقة رسمية صادرة عن مؤسسة تمثل المجتمع الدولي تعترف وتطرح بوضوح مسألة الخلل في تدفق الأخبار والمواد الثقافية وتتساءل عن الاستراتيجية التي يجب اتخاذها لمعالجة هذا الخلل.

تدخل العديد من العوامل لإفشال المناقشات حول الخلل المذكور وحوّله إلى حوار الصمّ صلابة الموقف الامريكي الريغيني (نسبة إلى الرئيس رونالد ريغان) الذي يريد أن يفرض بأي طريقة اطروحته المتعلقة بحرية تدفق الاعلام والاصطدام بمصالح دول الجنوب التي تناضل من اجل تحرر ثقافتها الوطنية.

الصناعات الثقافية

التنوع في السلع

ظهرت البلورة الثانية للاقتصاد السياسي للاتصال في المنتصف الثاني من سبعينيات القرن الماضي في أوروبا، واحتلت الصناعات الثقافية المرتبة المركزية فيها، واضطلع الباحثون الفرنسيون بالدور الاول فيها، كانت مقاربتهم لها بصفة عامة نقدية بشكل أساسي.

تساءل فريق البحث بقيادة الأكاديمي برنار مياج Bernard Mieg في الكتاب المعنون: **الرأسمالية والصناعات الثقافية** سنة ١٩٧٨ عن طبيعة السلعة الثقافية، وحاول الإجابة عن



أوراق في المعرفة الاقتصادية

السؤال التالي: ما هي المشاكل الخاصة التي تواجهها الرأسمالية لإنتاج القيم انطلاقاً من الفن والثقافة؟ لقد دحض الفكرة العزيزة على أصحاب مدرسة فرانكفورت ومفادها أن إنتاج السلعة الثقافية (الكتاب، الاسطوانة، الفيلم، المادة التلفزيونية، الصحافة وغيرها) يستجيب لمنطق واحد وحيد. إن صناعة الثقافة في نظر هؤلاء لا توجد في ذاتها؛ إنها مجموعة من المكونات التي تتشكل من العناصر التي تتباين بشدة، ومن القطاعات التي تمتلك قوانينها الخاصة بمعيارية الإنتاج.

لقد حدث تغيير في الفضاء الاوربي سنة ١٩٧٨ حيث تبني الوزراء الاوربيون المسؤولون عن الشؤون الثقافية مفهوم (الصناعات الثقافية) في اجتماعهم المنعقد في أثينا، وأصبح هذا المفهوم ضمن المصطلحات الادارية التي تتداولها إحدى الهيئات الاوربية: المجلس الأوربي.

من القطاع الصناعي إلى (المجتمع الشامل)

ظل مفهوم (المجتمع الجماهيري) المرتبط بمفهوم (الثقافة الجماهيرية) المرجع الأساسي للجدل حول طبيعة حداثة وسائل الاعلام ردحا من الزمن، وفقد مكانته الحصرية بدءاً من ستينيات القرن الماضي وتلته مسميات جديدة لتشخيص خصائص المجتمع الذي (عجنته) تكنولوجيات الاعلام والاتصال.

دخل مفهوم (الشمولي) global مجال التصور للعالم بواسطة الاتصال الالكتروني. وقد وصف كتاب الحرب والسلام في القرية العالمية War and Peace in Global Village الذي أعده الباحث الكندي مارشال ماكلوهان Marshall MacLuhan بالتعاون مع كونتين فيور Quentin Fiore، وصف الكتاب الأثر التلفزيوني لحرب فيتنام بـ (أول حرب تلفزيونية) حيث بين كيف كفف المشاهدون الذين تابعوا هذه الحرب مباشرة من صالونات بيوتهم عن أن يكونوا مجرد مشاهدين



شبكة الاقتصاديين العراقيين

IRAQI ECONOMISTS NETWORK
www.iraqieconomists.net

أوراق في المعرفة الاقتصادية

سلبين وتحولوا إلى (مشاركين)، وبهذا زالت الثنائية (العسكريون/المدنيون). ففي زمن السلم تجذب وسيلة الاعلام الالكترونية نحو التقدم كل الاقاليم الواقعة في المناطق غير الصناعية. إن المطلب التقني يقود التغيير الاجتماعي ولقد تكفل شعار (ثورة الاتصالات) الذي ولد في ضفة الاطلسي بمهمة تبديد آخر الطوباويات الخاصة بالثورة السياسية.

لقد قطعت فكرة المجتمع الذي أصبح شفافا بفضل (الاقتصاد المعلوماتي) مشوارا طويلا؛ إنها إحدى تنويعات الاسطورة التقنية. التقنية أصبحت (نظاما) بانتقال وضعها من وسيلة إلى مُنتجة وسط اصطناعي بفضل الترابط بين التقنيات الذي أصبح ممكنا بفضل المعلوماتية.

المؤلفان:

آرمان ماتلار، أستاذ علوم الاعلام والاتصال جامعة باريس

ميشال ماتلار، كاتبة وباحثة

الترجمة:

د. نصر الدين لعياضي، استاذ سوسولوجيا الاعلام وتكنولوجيا الاتصال بجامعة الجزائر و

د. دكتور الصادق رابح، استاذ التكنولوجيات الاعلامية الحديثة بجامعتي الجزائر والامارات

توزيع مركز دراسات الوحدة العربية - الطبعة الاولى - بيروت تشرين الاول - اكتوبر ٢٠٠٥

(*) خبير سابق في غرفة تجارة بغداد.

حقوق النشر محفوظة لشبكة الاقتصاديين العراقيين. يسمح بإعادة النشر بشرط الإشارة إلى المصدر.

<http://iraqieconomists.net/ar/>